منافع الحج في أكبر تجمع للمسلمين

نعم إنه أكبر تجمع للمسلمين، حيث يلتقي ملايين المسلمين في موسم ديني عام منطلقين من كل فج عميق، ووجهتهم هي مكة المكرمة محضن الكعبة المشرفة ومهبط الوحي الإلهي ومثابة الوافدين ومهوى أفئدة المسلمين من شتى أنحاء العالم ، فهي الجامعة لشمل المسلمين على اختلاف الديار الألسنة والأوان ، مع ما يحملونه من ثقافات مختلفة ، وتجارات متنوعة وعلوم دينية ودنيوية.

والحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام فرضه الله عز وجل على عباده المسلمين لحكم عظيمة ومنافع جليلة وأهداف سامية إظهارا لعبوديتهم له تبارك وتعالى ، وهو من العبادات القديمة التي كانت في زمن إبراهيم عليه السلام وهو ما بينه لنا القرآن الكريم في دعاء إبراهيم لربه عز وجل **(ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)** " سورة ابراهيم الآية 37" ليأمر الله عز وجل ابراهيم عليه السلام بعد الفراغ من بناء البيت أن يؤذن في الناس بالحج في قوله تعالى **(وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق)** " سورة الحج الآية 27 " ، قال الإمام القرطبي: " قوله تعالى : **(يأتوك رجالا وعلى كل ضامر)** وعده إجابة الناس إلى حج البيت بين راجل وراكب، وإنما قال (يأتوك) وإن كانوا يأتون الكعبة ، لأن المنادي إبراهيم، فمن أتى الكعبة حاجا فكأنه أتى إبراهيم لأنه أجاب نداءه) .

ليبين الله جل جلاله ، عقب هذه الآية مباشرة أن هناك منافع وفوائد ينالها هذا الجمع الذي أقبل من شتى

بقاع الأرض لزيارة البيت الحرام قال تعالى (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) " سورة الحج الآية 28 ، والتعليل هنا في قوله تعالى (ليشهدوا) إنما لما يتكبده الناس في سبيل الوصول إلى بيت الله الحرام من المشقة والصعاب التي تنالهم وتنال مركوبهم كل ذلك ليشهدوا منافع متنوعة لهم وفي ذلك يقول الإمام القرطبي في توضيحه لمعنى أن يشهد المسلمون هذه المنافع " ... أي أذن بالحج يأتوك رجالا وركبانا ليشهدوا أي ليحضروا ، والشهود الحضور (منافع لهم) ، أي المناسك كعرفات والمشعر الحرام ، وقيل المغفرة ، وقيل التجارة ، وقيل : هو عموم أي ليحضروا منافع لهم ، أي ما يرضي الله تعالى من منافع الدنيا والآخرة قاله مجاهد وعطاء واختاره ابن العربي ، فإنه يجمع ذلك من مناسك وتجارة ومغفرة دنيا وأخرى ، ولا خلاف في أن المراد بقوله (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) " سورة البقرة ، الآية 198 " التجارة .(3).

وإن اختلف في تفسير المنافع إلا أن هذا القول الرابع الذي ذكره الإمام القرطبي في تفسيره ، هو ما ذهب إليه غير واحد من المفسرين أولهم ابن عباس رضي الله عنه ، ففسر قوله تعالى (ليشهدوا منافع لهم) بأنها " منافع الدنيا والآخرة ، منافع الآخرة بالدعاء والعبادة ، ومنافع الدنيا بالربح والتجارة " (4) وبذلك قال الإمام ابن كثير بعد ذكر قول ابن عباس " أما منافع الآخرة فرضوان من الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والربح والتجارات ، وكذا قال مجاهد وغير واحد ، إنها منافع الدنيا والآخرة " (5) ، وهو قول الإمام البيضاوي والطبري أيضا (6) .

ونحن بدورنا سنتناول هذه الفريضة من فرائض الإسلام بذكر بعض المنافع والفوائد والمصالح الدينية والدنيوية التي تنطوي عليها،

سائرين في ذلك على ما قرره الأئمة الأفاضل في تقسيمهم لهذه المنافع إلى قسمين منافع دينية ودنيوية .

أولا المنافع الدينية :

الامتثال لأمر الله تعالى وطاعته : فالحج هو أعظم العبادات وأجلها لما يتضمنه من معاني سامية وأهداف جليلة ، ففي الحج طاعة لله عزل وجل وامتثال لأمره تعالى ، وأظهر دليل على ذلك هو المناسك التي يتبعها الحاج ويفعلها فأكثرها لم يتبين فيه وجه الحكمة ولكن يكفي أن الله تعالى أمرنا به وما على المسلم إلا التلبية والطاعة لأمره ، ففي الحج زمان محدد ومكان معين وذلك دون سائر بقاع الأرض، كما فيه تقبيل الحجر الأسود الذي لا يضر ولا ينفع ويكفي فيه قول عمر ابن الخطاب رضي الله عنه عندما أتى إليه فقال " إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك " يقول محمد بن عبد الباقي الزرقاني شارحا قول عمر رضي الله عنه " .. لأن متابعته عليه السلام مشروعة وإن لم يعقل معناها وفيها نفع بالجزاء والثواب ، فمعناه أنه لا قدرة له على نفع ولا ضر كباقي المخلوقات التي لا تنفع ولا تضر .. " (8) ، فإن انقياد العباد لأمر الله يهون عليهم فعل سائر الأحكام الشرعية التي أمر الله تعالى بها وإن لم يظهر فيها وجه الحكمة ، وفي ذلك تعظيم لشعائر الله **(ذلك ومن يعظم الله فإنها من تقوى القلوب)** سورة الحج ، الآية 32 .

تحقق التقوى : فكما أن المسلم مأمور بالتلبية والطاعة لأمر الله تعالى ، كان حريا عليه أيضا أن يتزود بالتقوى والإيمان من خلال تأدية هذه الشعائر والمناسك فالأضحية التي يقدمها الحاج بعد صلاة العيد لا ينال منها شيئا من دمائها ولحومها إنما المقصد منها هو استشعار التقوى والإيمان قال الله تعالى **(لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على**

ما هداكم وبشر المحسنين) " سورة الحج الآية 37 " وإن كان يجب التنبيه أيضا على أن لا ينسى الحاج التزود المادي لهذا السفر ، فإن فيه استغناء عن المخلوقين ، وإن كان خيرزاد ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة ويوصله لرضا ربه تبارك وتعالى ونعيمه الأبدي هو التقوى لله فهو مقياس قبول الأعمال والحظوة عند الله تعالى وذلك بالتزود بالأعمال الصالحة للمعاد ولذلك حض الله عزو جل عليها بقوله: (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقوني يا أولي الألباب) " سورة البقرة الآية 198 .

أن فيه تعاونا على البروالتقوى مما يشعر بالوحدة الجامعة : ففي هذا التجمع الكبير للمسلمين تنجلي أسمى صور التعاون على البر والتقوى بين المسلمين ، والبر اسم جامع لما يحبه ويرضاه الله عز وجل ، من الأعمال الظاهرة والباطنة ، والتقوى أن يترك الإنسان ويبتعد عن كل ما يكرهه الله ورسوله كانت هذه الأعمال ظاهرة أو باطنة أيضا ولذلك يقول تعالى : (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقوني يا أولي الألباب) "سورة البقرة الآية 197 " والتعاون مطلوب بين المؤمنين وإن اختلفت لغاتهم وأجناسهم وتباعدت بلدانهم ، فالقبلة هي الجامعة بينهم ، وبتعاونهم على البر والتقوى في أداء هذه الشعائر المختلفة والمناسك المتنوعة وتضرعهم لخالقهم تعالى انجلت وحدتهم ، ملبين نداء ربهم بقولهم : " لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك " لا فرق في ذلك بين غني وفقير ودني ولا أميرولا بسيط ولا قوي ولا ضعيف لا أسود ولا أبيض مجتمعين بهدف معين موحد ولباس واحد وهيئة واحدة على صعيد واحد إلى رب واحد أحد (9).

مغفرة الذنوب والبشرى له بالجنة:

وذلك مع الإخلاص والامتثال لما أمر الله تعالى به هذا مع تفضله عز وجل بالقبول فعن أبي هريرة رضي الله عنه،

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج البرور ليس له جزاء إلا الجنة " (10) ، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه " (11) وفي هذا الحديث دليل على أن من شهد تلك المشاهد وجاء بالحج المبرور ، تكون له المغفرة والرضوانم من الله تبارك وتعالى .

الدعوة إلى الله تعالى : فالحج من أخصب الميادين للدعوة إلى الله تبارك وتعالى ، والتوجيه إلى الخير والإعادة على الحق ، لأن فيه فرصة للمؤمن للإلتقاء مع إخوانه الحجيج من مختلف البلاد الإسلامية فلعل وعسى أن يتذاكروا فيما بينهم ما يجب عليهم من شرع الله ، وكل هذا العدد الهائل من شتى الأقطار الإسلامية قد اجتمع في أفضل الأيام وأطهر البقاع في جو من الرقة واللين والخشوع والانكسار بين يدي الغفار ليغفر الذنوب ليغفر الذنوب ويصفح عن الزلات ويعفو عن السيئات ويقيل العثرات، ومؤمن بهذا الحس لا شك أنه على أثم الإستعداد لتحقيق ما يأمره به ربه فكان بحق ميدانا خصبا للدعوة والتوجيه والنصح والإعانة، وإنما الواجب في هذه الدعوة أولا أن تكون من أهلها وثانيا أن تكون بالأساليب الحسنة والطيبة التي يرجى من ورائها قبول الحق وترك الباطل قال تعالى : " أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ظل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين. " سورة النحل الآية 125 " وبالتالي فعلينا اغتنام هذه الفرصة للدعوة بأيسر الوسائل الممكنة ، ويجب أن تكون غايتنا هي إظهار دين الإسلام وإعلان كلمته.(12)

التذكير بهادم اللذات وباليوم الآخر:

يعد الحج من أبرز العبادات الذي يستحضر فيها المسلم الموت والبعث والجزاء وهذا لطبيعة المشاهد التي يمر بها الحاج من خلال تأديته لهذه

الفريضة فالسفر الذي يشده الحاج الى بيت الله على ما فيه من فراق الاهل و الاحبة و الاولاد و الاموات ان هو الا استعداد للسفر للدار الاخرة و هو على الحال ، وما لباس الإحرام إلا تذكير بالكفن الذي سيلفه وهادم اللذات الذي لامحالة سيصله ، وهذا البيت الذي جعله الله أمنا للحجاج ما هو إلا تنبيه إى أمن الناس يوم القيامة وأنه لا يحصله المؤمن إلا بكد وتعب قال تعالى **(إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا)** " سورة آل عمران الآية : 96، 97 " ، وقال أيضا (**أول لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم**) سورة العنكبوت، الآية : 67"، وماشرب ماء زمزم إلا تذكير بنعمة الله على خلقه ، وما الوقوف بعرفات إلا تذكرة للوقوف في ساحة يوم المحشر وازدحام الخلائق فيها ، وما الانصلااف من عرفة إلا تذكير بمصير العبد يوم القيامة إما إلى الجنة وإما إلى السعير حتى يكون ذلك بمثابة الدافع لإعداد العدة والتشمير على الساعد مادام الإنسان في مهلة من أمره لإدراك ما فاته وجبر الخلل قبل أن يتمنى الرجوع فلا يتمكن من ذلك قال تعالى **(حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب أرجعون (99) لعلي أعمال صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون (100)** سورة المؤمنون الآية : 99 – 100 " .

ثانيا : المنافع الدنيوية :

التعاون بين المجتمعات الإسلامية المختلفة وتقوية الرابطة الأخوية بين المؤمنين:

فالحج أعظم وسيلة للتعارف بين الشعوب الإسلامية وتصال بعضها ببعض فعلى الرغم من تباعد الأقطار والديار والتشتت بين مختلف أصقاع الأرض إلا أن الله عز وجل جعل لهم فرصة في كل عام من أجل أن يجتمعوا فيها ويتعارفوا فيما بينهم كما دعا إلى ذلك الكتاب العزيز : **(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم**

شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير (13) " سورة الحجرات الآية 13 " ولذلك وجب على الشعوب الإسلامية استغلال هذه الفرصة وتقوية اللحمة فيما بينهم والنهوض بالروابط الأخوية إلى أعلى مراتبها ولا يكون ذلك إلا بالتناصر على الحق والتعاون عليه بالتهيؤ لمعرفة الطرف الآخر والاستماع إليه وإلى حالته التي هو فيها ، وإبداء الإستعداد لإعانته والوقوف إلى جانبه وإن كان لابد أن يكون ذلك أولا من كبراء القوم وسادتهم ورؤسائهم وعلمائهم قبل شعوبهم لنجسد قول الله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) " سورة الحجرات الآية 10 " (13) .

التعويد على الصبر : ومن منافع الحج الدنيوية أنه يقوي الصبر لدى الإنسان ويجعل قدرة الإحتمال لديه على الشدائد والمصائب والابتلاءات متينة وقوية ، فالمسافر للحج لا محالة سيجد أمورا عديدة يفارقها ولا سلاح في مواجهتها مجتمعة بالصبر ، فصبر على فراق الأحبة وصبر على ترك الشهوات وصبر على العبادات وصبر على الجوع وصبر على العطش والحر وغير ذلك مما يطول ذكره في هذا المقام قال الله تبارك وتعالى : (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين (155)) " سورة البقرة الآية 155 " ففي هذه الآية أخبر الله أنه سيبتلى عباده بمختلف المحن حتى يظهر الصادق من الكاذب ، وهي وسنة الله عز وجل في عباده المؤمنين ، وما على المؤمن الصادق إلا استغلال فرصة الحج من أجل تعويد نفسه على الصبر وترويضها .

المتاجرة: ففي هذا الموسم يعقد الحجيج الصفقات التجارية المربحة ويكون لهم من حصول الأرباح والتكسب ما لا يكون لهم في غيره من المواسم الأخرى وفائدة الفقراء إنما هي مما يدفع لهم من صدقات أو يقدم من ذبائح الهدي والضحايا والكفارات عن كل محضور يرتكبه المحرم ، وبذلك

يقل الفقر وتحل مشاكل البطالة ويرتفع مستوى الانتاج ويتوسع مجال النقل الجوي والبحري وغيره ، كما يتبادل الحجيج أيضا فيما بينهم المنافع التجارية والخدمات المختلفة من اللباس والبدن والطعام وسائر السلع المتنوعة كل ذلك في سوق رائجة وعالمية تعقد كل موسم وفي مكان وصفه الله عزوجل بأنه تجبى إليه ثمرات كل شيء قال تعالى : (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجيء إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون (57)) :"سورة القصص الآية 57 " وبذلك يتعرف المسلمون على التجاروتجارتهم ، بل قد ترقى إلى ابعد من ذلك من حيث لفت أنظار الحجيج لمنتجات إخوانهم المسلمين حتى في ذلك أثرا لتحسين الحالة التجارية بين المسلمين والاعتماد على السلع الإسلامية بدل السلع التي تأتينا من بلاد الكفار ، وذلك عن طريق إقامة معرض دولي إسلامي لعرض المنتجات الصناعية والغذائية والنسيجية ويكون بذلك ارتباط اقتصادي قوي بين مختلف الأقطار الإسلامية ، وليس في ذلك ما يخل بأمر الحج من الناحية التعبدية فقد سبق وأن نقلنا الأقوال في مسألة المنافع التي يشهدها الحجيج في موسم الحج وأنها تتنوع بين الدينية والدنيوية (14) .

إنه أكبر مؤتمر ديني وسياسي للمسلمين : فقد جعل الله عز وجل موسم الحج من أكبر المؤتمرات التي يشهدها ملايين المسلمين في حياتهم ، يريدون القربة إلى الله ويطلبون حط ذنوبهم وغفران سيئاتهم ويتسابقون إلى فعل الخيرات ويتشاورون فيه ويتناصحون فيما بينهم ويأتمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكرويقفون أيضا على أحوال بلادهم الإسلامية، وبذلك يكونون على اطلاع دائم لما يجري في مختلف الأوطان الإسلامية عسى أن يسعوا في مساعدة إخوانهم والتعاون على إيجاد الحلول اللازمة لهم وبذلك تقوى أواصر المودة

والتعارف بينهم وبذلك تزداد الشعوب الإسلامية اتصالا كل ذلك بشرط أن يكون دافعهم الأول في هذا المؤتمر هو المصلحة الكبرى للأمة الإسلامية ، والأولى بهذا الخطاب كما تقدم علماء الأمة وقادتها ودعاتها وأولياء أمورها وبذلكم تجتمع الكلمة ويتوحد الصف ويقفون أمام أعداء الإسلام متكاتفين ومتلاحمين لا يفرقهم في ذلك مفرق . (15)

وفي الأخير ما عسانا إلا أن نقول أن منافع الحج أكثر من أن تحصى أو أن تختزل في هذه المقالة ، ويبقى التعبير القرآني أشمل وأوسع وتبقى المنافع الدنيوية والأخرية أعم (ليشهدوا منافع لهم) وإنما يتم للمفسر الكشف عن تلك المنافع بقدر ما يفتح الله له من جودة الذهن في فهم كتبه وتدبر معانيه، والله – جل وعلا – هو العليم بما يصلح عباده في دينهم ودنياهم ، وخير ما نختم به حديثنا هذا هو دعائنا إلى الله عزوجل بأن يوفقنا جميعا لأداء هذا الفرض من فرائض الإسلام وييسر لنا سبيل الوصول إليه .

الهوامش:

1 -الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق عبد الله التركي "14 /360" ط1 مؤسسة الرسالة ، بيروت لبنان : 2006م

2 -المصدر ذاته " 14 /362"

3 -المصدر ذاته " 14 /366"

4 -تنوير للقابس من تفسير ابن عباس "351" ط1 ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان 1992م

5 -تفسير القرآن العظيم لابن كثير "3/1950" ط1 ، دار ابن حزم ، بيروت: 2002 م

6 -تفسير البيضاوي مع حاشية شيخ زادة ، ضبط محمد شاهين " 6/105 " دار الكتب العلمية بيروت لبنان : 1419جامع البيان عن تأويل أي القرآن لأبي جعفر الطبري تحقيق عبد الله التركي " 16 /522 " ط1 ، دار هجر ، القاهرة : 1422 هـ .

7 -صحيح البخاري " موسوعة الحديث " (126) كتاب الحج ، باب ما ذكر في الحجر الأسود حديث " 1597 "

موطأ الإمام مالك (298) كتاب الحج باب تقبيل الركن الأسود في الإسلام ، حديث " 847 " ط1 مؤسسة الرسالة بيروت لبنان : 2011 م.

8 -شرح موطأ الإمام مالك ، محمد الزرقاني " 2 /210" المطبعة الخيرية بمصر .

9 -منافع الحج سعد صادق محمد، مجلة الوعي الإسلامي " 67 ، 68" العدد 192 ، (ذو الحجة 1400 هـ أكتبر 1980 م) الكويت الحج أكبر مؤتمر ديني إسلامي فهل فهم المسلمون مغزاه ؟ محمد المختار بن محمود ، المجلة الزيتونية " 217 ، 218 " المجلد الخامس (ذو القعدة 1355 هـ / جانفي 1937م) تونس .

10 -صحيح البخاري " 139 " كتاب العمرة باب وجوب العمرة وفضلها ، حديث (1773) ، موطأ الإمام مالك " 282 " كتاب الحج ، باب جامع ما جاء في العمرة حديث (794) .

11 -صحيح البخاري " 120 " كتاب الحج ، باب فضل الحج المبرور ، حديث (152).

12 -منافع الحج ، محمد ولد سيدي عبد القادر الأمسمي ، الموقع الإلكتروني لمكتبة صيد الفوائد http://www.saaid.net/book/index.php ، 28 / 08/2014 الساعة 10.11 صباحا .

13 -الحج أكبر مؤتمر إسلامي فهل فهم المسلمون مغزاه ؟ " 217 ، 218 " .

14 -المصدر ذاته " 219 " .

15 -الحج مؤتمر المسلمين الأكبر، عبد المقصود محمد حبيب ، مجلة الوعي الإسلامي ، العدد 191 ، (ذو القعدة 1400هـ / سبتمبر 1980 م) الكويت ، منافع الحج ، سعد صادق محمد " 69) .